

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية . آياتها سبعون وست آيات (١) . كلماتها ألف كلمة ، وستمائة كلمة ، وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان ، وأربعة وتسعون حرفا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

قال البخارى : قال ابن عباس : الأنفال : المغنم ، وروى عن سعيد بن جبيرة ، قال : قلت لابن عباس : سورة الأنفال ؟ قال : نزلت فى بدر . أما ما علّقَه عن ابن عباس ، فكذلك رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس أنه قال : الأنفال : الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ، ليس لأحد منها شيء . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد : أنها المغنم .

وروى ابن جرير عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال ؟ ، فقال ابن عباس : الفرس من النفل ، والسلب من النفل . ثم عاد لسأله ، فقال ابن عباس ذلك أيضا . ثم قال الرجل : الأنفال التى قال الله فى كتابه ، ما هى ؟ قال القاسم : فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرجه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ، مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب . وروى عبد الرزاق عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب إذا سئل عن شيء قال : لا أمرك ولا أنهاك . ثم قال ابن عباس : والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا أمرا ، مُحِلّا مُحَرَّمًا . قال القاسم : فَسَلِّطْ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَجُلًا فَسَأَلَهُ عَنِ الْأَنْفَالِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ الرَّجُلُ يَنْفُلُ فَرَسَ الرَّجُلِ وَسِلَاحَهُ . فَأَعَادَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ حَتَّى أَغْضَبَهُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَتَدْرُونَ مَا مِثْلُ هَذَا؟ مِثْلَ صَبِغٍ الَّذِى ضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، حَتَّى سَالَتِ الدَّمَاءُ عَلَى عَقْبِهِ وَعَلَى رَجْلَيْهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَمَا أَنْتَ فَقَدْ انْتَقَمَ اللَّهُ لِعَمْرٍ مَنكَ . وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ فَسَّرَ النَّفْلَ بِمَا يَنْفُلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْ سَلْبٍ أَوْ نَحْوِهِ ، بَعْدَ قَسْمِ أَسْلِ الْمَغْنَمِ ، وَهُوَ الْمَتَابَرُ إِلَى فِهْمٍ كَثِيرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ لَفْظِ النَّفْلِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وروى ابن المبارك وغير واحد عن عطاء بن أبى رباح : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ، قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال ، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالقبض ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هى أنفال السرايا ، وقد صرح بذلك الشعبي ، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسّم ، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبى

(١) فى المخطوطتين : « آياتها ست وأربعون آية » . وهو خطأ يقينا ، مخالف للواقع فى عدد آياتها . وهى فى عد مصحفنا ٧٥ آية ، على عد المصحف الكوفى ، وهى ٧٦ آية فى عد المصاحف المدنى والمكى والبصرى .

وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخى عُمَيْرٌ، وقتلتُ سعيدَ بنَ العاصِ وأخذتُ سيفه، وكان يسمى «ذا الكتيفة»، فأتيت به نبي الله ﷺ، فقال: «أذهب فاطرحه في القبض». قال: فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى. قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سَلْبَكَ».

وروى الإمام أحمد أيضا عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسول الله، قد شفانى الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه» قال: فوضعتة، ثم رجعت، فقلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلانى، قال: فإذا رجل يدعونى من ورائى، قال: قلت: قد أنزل الله فى شيتنا، قال: «كنت سألتنى السيف، وليس هو لى وإنه قد وهب لى، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ﴾. ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسى عن سعد قال: نزلت فى أربع آيات: أصبت سيفا يوم بدر، فأتيت النبي ﷺ فقلت: نَقَلْتِهِ. فقال: «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته، فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته»، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وتام الحديث فى نزول: ﴿ووضينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ [التكوير: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّخْمُ وَالمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وآية الوصية. وقد رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فىنا - أصحاب بدر - نزلت، حين اختلفنا فى النَّفْلِ، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله لى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بؤاه - يقول: عن سواء.

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن نقينا عنها العدو وهزمتها. وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصب العدو منه غرّة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين - وكان رسول الله ﷺ إذا غار فى أرض العدو نَقَلَ الرِّيعَ، فإذا أقبل راجعا نقل الثلث، وكان يكروه الأنفال. ورواه الترمذى وابن ماجه نحوه، وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. وروى أبو داود والنسائى، وابن جرير، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع فى ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغائم، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تتسأروا علينا، فإننا كنا رداء لكم، لو انكشفتم لَمِتْمَمَ إلينا. فتنازعا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الأنفال ﴿ إلى قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها»: أما الأنفال: فهي المغنم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبي ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿ بِمَآلُونِكَ غَنِيَ الْأَنْفَالُ قَبْلَ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يُخَمَّسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى . قلت: هكذا روى على بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسدي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: في ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لاهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصه الله به تطولا منه عليهم، بعد أن كانت المغنم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل. قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وذكر تمام الحديث. ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى مهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكابة في العدو.

وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تخصصون بسببه ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراه الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس: هذا تمحيص من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد. وقال السدي: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي: لا تستبوا.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

قال ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فادوا فرائضه ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ يقول:

(١) رواه الطبري بثلاثة أسانيد صحاح إلى ابن عباس (١٥٦٥٠ - ١٥٦٥٢) رواه بإسناد رابع (١٥٦٥٣) إلى عكرمة فقط - وهو في أبي دارد (٢٧٣٧) والحاكم (٢ / ١٣١ ، ١٣٢) ، وقال الذهبي: «هو على شرط البخاري» .
ورواه مرة أخرى مطولا من وجه آخر (٢٢٦/٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَّتْ لُقُوبُهُمْ﴾ فَرَقْتُ ، أى: فرعت وخافت. وكذا قال السدى وغير واحد.

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه ، أى : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [التارعات: ٤٠ ، ٤١] ولهذا قال سفيان الثورى: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ لُقُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يُهم بمصيبة - فيقال له: اتق الله ، فيجِلُّ قلبه .

وقوله: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ يُكُفِّرُوا زَادَتْهُ إِيمَانًا فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدل البخارى وغيره من الائمة بهذه الآية وأشباهاها، على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب، كما هو مذهب جمهور الامة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الائمة، كالشافعى، وأحمد بن حنبل، وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى، والله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ﴾ أى: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ : بينه تعالى بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. قال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبى ﷺ ، هذا إقامتها. والإنفاق عما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقهم. قال قتادة فى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ : فانفقوا عما أعطاكم الله، فإنما هذه الاموال عَوَارَى وودائع عندك يابن آدم، أَوْشَكْتَ أَنْ تَفَارِقَهَا.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال عمرو بن مرة فى مرة فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ : إنما نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، كَقَوْلِكَ: فلان سيد حقا، وفى القوم سادة، وفلان تاجر حقا، وفى القوم تجار، وفلان شاعر حقا، وفى القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: منازل ومقامات ودرجات فى الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَنْفِرَةٌ﴾ أى: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاک فى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ : أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فىرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضّل عليه أحد؛ ولهذا جاء فى

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء »، قالوا : يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يتألفها غيرهم؟ فقال: « بلى، والذي نفسي بيده، لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » (١). وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة ليرآؤون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا » (٢).

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفِينَ إِنَّمَا لَكُمْ تَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُوْنُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾، فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

ومعنى هذا: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغامات وتشاحتم فيها فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ، فقسما على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رَشْمًا وَهْدَى، ونصرا وفتحًا، كما قال تعالى: ﴿ كَبَّ عَلَىكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون لقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَّ ﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالا فنستعد له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَمَ بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقْتَع، ما بين

(١) انظر البخاري (٦ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ فتح) ومسلم (٢ / ٣٤٩).

(٢) « وأنعمًا » : أي رادا وفضلا ، ويقال : قد أحسنت إلى في الإحسان وأنعمت ، أي : ردت على الإحسان . وقيل :

معناه : صاروا إلى التميم ودخلا فيه . قاله في اللسان .

التسمئة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعمير إلى سيف البحر فتتجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير معاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض: أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين: إما العمير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العمير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾. روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن بالمدينة:» إني أخبرت عن عمير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبيل هذه العمير لعل الله يغمناها؟» قلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: «ما ترون في قتال القوم؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم؟» قلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العمير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» قلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فانزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبي حاتم بنحوه. ورواه ابن مردويه أيضاً عن علقمة بن وقاص الليثي، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء، خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بكان كذا وكذا. قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر. ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ماسلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي «برك الغمام» من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الآيات.

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر، أمر الناس أن يتهيؤوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، ففكر ذلك أهل الإيمان، فانزل الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأننا يسأون إلى الموت وهم ينظرون. وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال. قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين. ثم روى عن ابن زيد، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق: ﴿كأننا يسأون إلى الموت﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿وهم ينظرون﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر. ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذي قبل قوله: ﴿يجادلونك في الحق﴾ خير عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خير عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خير عن المؤمنين. وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعمير ليس دونها شيء، فناداه

العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح لك ، قال : ولم ؟ قال : لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . إسناده جيد ، ولم يخرجوه (١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرْكَاءِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ أى : يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال ، تكون لهم وهي العير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ، لِيُظْفِرَكُمْ بِهِمْ وَيُظْهِرَ كُمْ عَلَيْهِمْ ، ويظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالباً على الأديان ، وهو أعلم بواقب الأمور ، وهو الذى يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن مسلم الزهرى ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله ابن أبى بكر ، ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا ، عن عبد الله بن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا : لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام نذب المسلمين إليهم ، وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن يتملككموها » . فانتدب الناس ، فحف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركب ، تخوفاً على أمر الناس ، حتى أصاب خيراً من بعض الركب : أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذرك عند ذلك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً فيستفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة ، وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له «ذفران» (٢) ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله به ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى «برك الغماد» - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا على أباها الناس » - وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عداً للناس ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذممتنا نمنعك مما تمنع منه أبنائنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا عن دهمه بالمدينة ، من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكانك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » قال : فقد آمننا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا وموآثقتنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله . فوالذى بعثك بالحق ، إن استعرضت بنا

(١) المسند (٢٠٢٢) . وفصلنا تخرجه هناك .

(٢) «ذفران» : بفتح الهمزة المعجمة وكسر الفاء وبعد الراء ألف ونون . قال ياقوت : «واد قرب وادى الصفراء» .

هذا البحر فضضته لخصاه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» .

وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكثاف بسياق محمد بن إسحاق.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الِغَلَابَةِ مُرَدِّينَ ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَإِعْظَامَ بِرِيهِ قُلُوبِكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(١٠) روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ، قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة وثيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال : « [اللهم أين ما وعدتني] (١) ، اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً »، قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فاتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال : يا نبي الله، كفاك (٢) مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الِغَلَابَةِ مُرَدِّينَ ﴾ ، فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر : يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تُمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبي ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان ، فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تبكيت لبيكائكما ! قال النبي ﷺ : « للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء : لقد عرض على عذابيكم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة من النبي ﷺ ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى تَبْخُنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكَلُوا بِمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [الانفال : ٦٧ - ٦٩] ، فأحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وقرأ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ

(١٠) من هنا بداية عملنا من حيث التخريج وتحقيق النص (أنور الباز) .

(١) ساقطة من المخطوطة والمطبوعة ، وأثبتنا من المسند .

(٢) في المخطوطة : « كذلك » ، والمثبت كما في المسند .

مُصِبةٌ قد أصبتم مثلها فتمم أني هذا قل هو من عبد أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ﴿ [آل عمران: ١٦٥] ، بأخذكم الفداء . ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وصححه على بن المدىنى والترمذى ، وقالوا : لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني (١) . وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم أشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعد » ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك ! فخرج وهو يقول : ﴿ سَهْمُ الْجَمْعِ وَيُؤَكِّدُ الدَّبْرَ ﴾ [القمر : ٤٥] . ورواه النسائي (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بِالْألفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ أى : يُرَدُّفُ بعضهم بعضا ، كما قال ابن عباس : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ : متتابعين . ويحتمل أن المراد ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ لكم ، أى : نجدة لكم ، عن ابن عباس : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ ، يقول : المدد ، كما تقول : اتت الرجل زده كذا وكذا . وهكذا قال مجاهد ، وابن كثير القارى ، وابن زيد : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ : مُمدِّين . وقال أبو كدينة ، عن قابوس (٣) ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ مُدِّكُمْ بِالْألفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ قال : وراه كل ملك . وفى رواية بهذا الإسناد : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض . وكذا قال أبو ظبيان ، والضحاك ، وقادة . وروى ابن جرير : عن على ، قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وهذا يقتضى - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ بفتح الدال ، فالله أعلم . والمشهور عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مُجْتَبِةً ، وميكائيل فى خمسمائة مُجْتَبِةً . وروى البخارى عن معاذ بن رفاعه بن رافع الزُرْقَى ، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » - أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة . انفراد بإخراجه البخارى (٤) . وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعنة : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ الآية ، أى : وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشْرَى ، ﴿ وَلَتَطْمَئِنُّ بِه قُلُوبُكُمْ ﴾ ، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا (٦) لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَّخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّقَابَ وَإِنَّمَا مَأْبِقُهُ وَمَا بَعْدُ فَأَنْتُمْ عَدُوٌّ لَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَائِلِينَ ﴾ [محمد : ٤-٦] ، والذين قُتِلُوا فى سبيل الله لَنْ يُغْفَلَ أَعْمَالُهُمْ . سيديهم ويصلح بهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴿ [محمد : ٤-٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَدَائِلِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] ، فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التى تعم تلك الأمة

(١) المسند (٢٠٨) ، ورواه مسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذى (٣٠٨١) ، والطبرى (١٢٧/٩) .

(٢) البخارى (٣٩٥٣) ، والنسائي فى الكبرى (١١٥٥٧) .

(٣) فى المطبوعة : « قابس » ، والثبت من المخطوطة .

(٤) رواه البخارى (٣٩٩٢) .

(٥) فى المخطوطة : « وإنا » وهو خطأ واضح .

المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل (١) ، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ، ثم أنزل على موسى التوراة ، شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ [القصص : ٤٣] ، وقَتَلَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ أَشَدَّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ، وَأَشْفَىٰ لِمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَخْرُجُهُمْ عَلَيْهِمْ وَاخْرَجَهُمْ مِنْ دِينِهِمْ، مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، ولهذا كان قَتْلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدراءهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتَلَ أَبِي جَهْلٍ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ وَحَوْمَةِ الْوَعْيِ، أَشَدَّ إِهَانَةً لَهُ مِنْ مَوْتِهِ عَلَىٰ فِرَاشِهِ بِقَارِعَةٍ أَوْ صَاعِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ - لعنه الله - بِالْعَدَمَةِ (٢) بِحَيْثُ لَمْ يَقْرِبِهِ أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِهِ، وَإِنَّمَا غَسَلُوهُ بِالْمَاءِ قَدْخًا مِنْ بَعِيدٍ، وَرَجَمُوهُ حَتَّىٰ دَفَنُوهُ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَتَصَرَّفُ سُلْطَانًا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ، مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ دِمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

﴿إِذْ يُنْفِثُكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِيحَ الشَّيْطَانِ وَيَلْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَرَبَّتْ بِهَ الْأَقْدَامُ﴾ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَاتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْتَابِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أماناً امنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنًا نَاعِمًا لِيُبْطِئَ قُلُوبَكُمْ وَنَاطِقَةٌ فَمَقَّتْ أَعْتَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [آل عمران : ١٥٤] . قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وأخذته، ويسقط وأخذته، ولقد نظرت إليهم يمدون وهم تحت الحَجَفِ (٣) .

وروى أبو يعلى عن علي ، قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ ، يصلى تحت شجرة ويكفي حتى أصبح (١) .

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جداً ، وأما الآية الشريفة إنما هي في

(١) في المخطوطة «السين» ، والنسختة من المطبوعة ، وهو الموافق لما في القرآن الكريم .

(٢) هي بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تغفل صاحبها غالباً . انظر : النهاية لابن الأثير ٣ / ١٩٠ .

(٣) الحَجَفُ : التروس من جلود ، واحدها : حَجَفَةٌ . (القاموس) .

(٤) أبو يعلى (٢٨٠) ، وهو في المسند (١٠٢٣) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير (٢٢ / ٤) ، ولكن نسبته لأبي يعلى عن زهير عن عبد الرحمن بن مهدي ، فعلى الحافظ نسي أنه في المسند فلم ينسبه إليه .

سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا ، وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم ، وكما قال تعالى : ﴿ لَنْ مَعَ الْقَوْمِ بُرْءًا . إِنَّ مَعَ الْقَوْمِ بُرْءًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبما فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثيابه النقع » ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَهْزَمَ الصَّمْعَ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴾ [القمر : ٤٥] (١) .

وقوله : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ : قال ابن عباس : نزل النبی ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دحصة (٢) ، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنين ! فأمر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومضى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ. وكذا قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا على الماء يوم بدر ، فغلبوا المؤمنين عليه . فأصاب المؤمنين الظما، فجملوا يصلون مجنين محدثين، حتى تماظموا ذلك فى صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادى، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله فى ذلك طهورا، وثبت به الأقدام . وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت ، وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك روى عن قتادة، والضحاك، والسدى .

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أى: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذى نزلت منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلت للحرب والكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلت للحرب والكيدة» . فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل ، ولكن مر بنا حتى نزل على أدنى ماء بلى القوم ونغور ما وراءه من القلْب، ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء . فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك .

وأحسن ما فى هذا ما رواه ابن إسحاق عن هروة بن الزبير قال : بعث الله السماء - وكان الوادى دحسا (٣) فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنهم من السير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه (٤) . وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم .

وقوله : ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ أى: من حدث أصفر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: من وسوسة أو خاطر سين، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى فى حق أهل الجنة : ﴿ هَالِكُمْ لِيَابُ سُدُورٍ خَضِرٍ حُدُودُهَا وَمِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ مَبْضُوعٍ ﴾ فهذا رينة الظاهر ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ حَرًّا مَبْشُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١]

(١) الدر المنثور (٣/١٦٨)، وصحج الحديث روه البخارى (٢٩١٥) .

(٢) أى سهلة . (٣) النعس : المكان السهل ليس برمل ولا تراب . (الفاموس) .

(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٩) .

أى: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو رينة الباطن وطهارته ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى: بالصبر والإنقاد على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ﴿ وَوَيْبَتْ بِهِ الْأَقْدَامُ ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ فِيكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يشبوا الذين آمنوا . قال ابن إسحاق : وآزروه . وقال غيره : قاتلوا معهم . وقيل : كثروا سوادهم . وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول : سمعت هؤلاء القوم - يعنى المشركين - يقولون : « والله لئن حملوا علينا لننكشفن » ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه .

وقوله: ﴿ سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ ﴾ أى : تبتوا أنتم المؤمنون وقروا أنفسهم على أعدائهم ، عن أمرى لكم بذلك ، سألتى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمرى، وكذب رسولى ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أى: اضربوا الهام ففلقوها، واحترقوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الاطراف منهم، وهى أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون فى معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه: اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة. وقيل: معناه: على الأعناق، وهى الرقاب. قاله الضحاک، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا فَضَلُّوا الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤]. واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وقلن الهام .

وقوله: ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا من أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم . و «البنان» : جمع بنانة ، وقال ابن عباس : يعنى بالبنان : الاطراف . وكذا قال الضحاک وابن جريج . وقال السدى : البنان : الاطراف، ويقال : كل مفصل . وقال العوفى، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلا، ولكن خذوهم اخذا، حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى . فأوحى الله إلى الملائكة : ﴿ أَنْتُمْ فِيكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله، فى تسعة وستين رجلا، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبيرا، فوفى ذلك سبعين - يعنى : قتيلا . ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى: خالفوهما فساروا فى شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق - وهو مأخوذ أيضا من شق العصا، وهو جعلها فرقتين - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناواه، لا يفوته شىء، ولا يقوم لغضبه شىء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ : هذا خطاب للكفار، أى: ذوقوا هذا العذاب والنكال فى الدنيا، واعلموا أيضا أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ لِيَوْمَئِذٍ يُدْعَى الَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ الْقِتَالَ أَوْ مُتَحِدِينَ إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَعَدَّ بَكَاءَ بَعْضِهِمْ مِّنَ اللَّهِ مَوَانِعَ جَهَنَّمَ وَيَسُورُ الْمَصِيرَ﴾

يقول تعالى متوهدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا ﴾ أى : تقاربتهم منهم ودنوتهم إليهم ، ﴿ فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ أى : تفروا وتركوا أصحابكم ﴿ وَمَنْ يُولِهِمْ يُوقِدْ دُورَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أى : يفر بين يدي قرنه مكيدة ؛ ليريه أنه خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه فى ذلك . نص عليه سعيد بن جبير ، والسدى . وقال الضحاك : أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها . ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ أى : فر من هاهنا إلى فتنة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه ، فيجوز له ذلك ، حتى ولو كان فى سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم ، دخل فى هذه الرخصة . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر ، قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة - فكنت فيمن حاص - فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بتنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا : نحن الفرارون . فقال : « لا ، بل أنتم العكَّارون ، أنا فتكم ، وأنا فتنة المسلمين » قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من طرق عن يزيد بن أبي زياد ، وقال الترمذى : حسن لا نعرفه إلا من حديثه (١) .

قال أهل العلم : معنى قوله : «العكَّارون» أى : العطافون . وكذلك قال عمر بن الخطاب ، فى أمر عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو تحيز إلى لكنت له فتنة . وقال مجاهد : قال عمر : أنا فتنة كل مسلم . وقال الضحاك فى قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ المتحيز : الفار إلى النبى وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . فاما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب ، فإنه حرام وكبير من الكبائر ، لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَغَدَّ بَاءً ﴾ أى : رجع ﴿ يَهْفُضُ مِنَ اللَّهِ مَمْلُوءًا ﴾ أى : مصيره ومتقلبه يوم مياعده ﴿ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة ؛ لأنه [يعنى الجهاد] كان فرض عين عليهم . وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكروه .

وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، يروى هذا عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم . وحثتهم فى هذا : أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك ، كما قال النبى ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » (٣) ، ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿ وَمَنْ يُولِهِمْ يُوقِدْ دُورَهُ ﴾ : ذلك يوم بدر ، فاما اليوم : فإن انحاز إلى فتنة أو مصر - أحبه قال : فلا بأس عليه .

(١) المسند (٥٣٨٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وفيه بحث للشيخ اتظفه فى المسند ، وأبو داود (٢٦٤٧) ،

والترمذى (١٧١٦) ، وابن ماجه (٣٧٠٤) .

(٢) رواه البخارى (٢٧٦٦) ، ومسلم (١٤٥/٨٩) .

(٣) مسلم (٥٨/١٧٢٣) ، والمسند (٢٢١) .

وقال يزيد بن أبي حبيب : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : ﴿ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَفِّدْ دَبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِيهِ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ نُكَرُوا مِنْكُمْ يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : ﴿ ثُمَّ وَكَيْتُمْ مُدَبِّرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] ، ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [التوبة: ٢٧] . وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر ، وإن كان سبب نزول الآية فيهم ، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف من الموبقات ، كما هو ما هب الجماهير ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّ تَقَاتَلُوهُمْ وَكُنَّ اللَّهُ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيَسْبِلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ كَيْدٌ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك واعانهم، ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّ تَقَاتَلُوهُمْ وَكُنَّ اللَّهُ قَتَلَهُمْ ﴾ أي : ليس بحولكم وقوتكم قتلت أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي : بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّفَقُوا اللَّهُ لِمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْيَبْتَكُمْ فَأَتَتْكُمْ قَوْمٌ تَقِيْعَكُمْ شَيْئًا وَضَارَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَكَيْتُمْ مُدَبِّرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] ، يعلم - تعالى - وتبارك - أن النصر ليس عن كثرة العدد ، ولا بلبس اللامة والعدد ، وإنما النصر من عند الله تعالى ، كما قال : ﴿ كَمْ مِنْ قَبْلِهِ قَلْبَةٌ غَلَبَتْ فِيهَا كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

ثم قال لنيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكاثته ، فرماهم بها ، وقال : « شامت الوجوه » . ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصاة إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شلعه عن حاله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، وكتبهم بها لا أنت . عن ابن عباس : رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال : « يا رب ، إن تهلك هذه العصابة ، فلن تعبد في الأرض أبدا » . فقال له جبريل : « أخذ قبضة من التراب ، فارم بها في وجوههم » فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة ، قولوا مدبرين (١) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة سيمنة القوم ، وحصاة في سيرة القوم ، وحصاة بين أظهرهم ، وقال : « شامت الوجوه » ، فانهزموا .

وقد روى في هذه القصة عن عروة بن الزبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقادة وغير واحد من الأئمة : أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا . وروى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ وَإِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ أي : ليعرف المؤمنون نعمته عليهم ، من إظهارهم

(١) سبق تخريجه عند الآية : (٩) من السورة نفسها .

على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فره ابن جرير أيضا.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَذِبِ الْكَافِرِينَ﴾ : هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفٌ كيد الكافرين فيما يستقبل، مصفرا أمرهم، وأنهم كل ما لهم فى تيار ودمار ، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ أى: تستمروا وتستفضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتم ، كما روى ابن إسحاق عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير ، أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أبنا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف ، فأخذه الغداة - وكان ذلك استنخاها منه - فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم ، أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرف ، فأخذه الغداة، لمستفتح. وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) . وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا باستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفتيين ، وخير القبيلتين . فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ ، يقول : قد نصرت ما قلتم ، وهو محمد ﷺ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿وإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انزِلْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأفعال : ٢٢] .

وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أى: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقولهم: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء : ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أى: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ، فإن الله مع المؤمنين ، وهم الحزب النبوى ، والحزب المصطفى .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ وَالْوَلَوْ عِلْمَ اللَّهِ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١١﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبّه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال : ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أى: تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك رواجره ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أى: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل : المراد:

المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم سيئ الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدُّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُورُ﴾ أى: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَخْلُقُونَ﴾، وهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالانعام فى قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَنْفَعُ إِلَّا دَعَاؤُ وَنِدَاءُ﴾ الآية [البقرة : ١٧١] . وقال فى الآية الأخرى : ﴿أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَىٰ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ﴾ [الاحزاب : ١٧٩] . وقيل : المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بنى عبد الدار من قريش. روى عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا ؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لانهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿وَتَوْعَمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْتَهْمُ﴾ أى: لافهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿تَوَاسْتَهْمُ﴾ أى: افهمهم ﴿تَتَرَكُوا﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

قال البخارى: ﴿استجبوا﴾: اجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. وروى عن ابي سعيد بن العلى قال: كنت أصلى، فمر [بى] (١) رسول الله ﷺ، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتته فقال: «ما منعك أن تأتينى؟» الم يقل الله: ﴿بِمَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لا علمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له، وقال: «هى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثانى» (٢). وقال مجاهد فى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السدى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ففى الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر. وعن عروة بن الزبير: ﴿بِمَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أى: للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم موقوفا، وقال: صحيح ولم يخرجاه (٣). وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، وغيرهم. وقال السدى: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] . وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية :

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : كان النبى ﷺ يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب ،

(١) ساقطة من المخطوطة، وأثبتناها من المطبوعة والبخارى .

(٢) الحاكم فى المستدرک (٣٢٨/٢) .

(٣) البخارى (٤٦٤٧) .

ثبت قلبى على دينك . قال : فقلنا : يا رسول الله ، أمتنا بك وبما جنت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقبلها . وهكذا رواه الترمذى . ثم قال : حسن (١) . وروى أيضاً الإمام أحمد عن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ كان يكثر فى دعائه يقول : اللهم يا مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك . قالت : فقلت : يا رسول الله ، أو إن القلوب لتقلب ؟ قال : نعم ، ما خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله ، عز وجل ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه . فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ألا تعلمنى دعوة أدهو بها لنفسى ؟ قال : بلى ، قولى : اللهم رب النبى محمد ، اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، واجرنى من مضلات الفتن ما أحببتى (٢) . وروى أيضاً الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصفرفها كيف شاء . ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك . انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى ، فرواه مع النسائى (٣) .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فتنة﴾ أى : اختباراً ومحنة ، يعم بها المسء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب ، بل يعمهما ، حيث لم تدفع وترفع . كما روى الإمام أحمد عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ، ما جاء بكم ؟ ضيغتم الخليفة الذى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان ، رضى الله عنهم : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ، لم تكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت سنا حيث وقعت (٤) . وعن الحسن فى هذه الآية قال : نزلت فى على ، وعثمان ، وطلحة والزبير ، رضى الله عنهم . وقال السدى : نزلت فى أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل ، فاقتلوا .

وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعصمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ : هى أيضاً لكم ، وكذا قال الضحاك ، ويزيد بن أبى حبيب ، وغير واحد . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن : ١٥] ، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح ، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن . روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ، أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم

(١) المسند (١١٢/٣) ، والترمذى (٢١٤٠) ، وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٣٠١/٦) . ورواه الترمذى (٣٥٢٢) وقال : «حديث حسن» ، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٦٥٦٩) ، ومسلم (٢٦٥٤) ، والنسائى فى الكبرى (٧٨٦١) .

(٤) المسند (١٦٥/٤)

عقاباً من عنده، ثم لتدعته فلا يستجيب لكم» (١). وروى أحمد عن عامر، قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، والمدامن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم فأدّوهم، فقالوا: لو خرّقتنا في نصبنا خرّقتنا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلّكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجّوا جميعاً. انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم (٢). وروى أحمد أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عمّهم الله بعذاب من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «بصبيهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان» (٣).

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسُ فَتَأْتِيَكُمْ وَيَأْتِيَكُمْ بِصُرُوفِهِمْ وَرِزْقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾

بنيه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثروهم، ومستضعفين خائفين فقوّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسى ورومى، كلهم أعداء لهم لقتلهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دايمهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فأوأمهم إليها، وقبض لهم أهلها، أوأوا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما تعلم قبيلاً من حاضري أهل الأرض يومئذ كانوا أشدّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿﴾

قال الزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعث رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ليتزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أي: إنه الذبيح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو

(١) المسند (٣٣٨/٥)، والحديث رواه الترمذي (٢١٦٩)، وقال: «حسن».

(٢) المسند (٢٦٩/٤)، والبخاري (٢٤٩٣)، (٢٦٨٦).

(٣) المسند (٣٠٤/٦)، وإسناده صحيح.

يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه فى سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نفرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به» (١).

وروى ابن جرير: عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية فى قتل عثمان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ» الآية. وفى الصحيحين قصة «حاطب بن أبى بلتعة» أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجمه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بلراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (٢).

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء.

والحياة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. قال ابن عباس: «وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ»: الامانة الاعمال التى ائتمن الله عليها العباد - يعنى الفريضة - يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها. وقال فى رواية: «لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ» يقول: بترك سته وارتكاب معصيته. وقال السدى: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا اماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النسي ﷺ الحديث فيفسونه حتى يبلغ المشركين.

وقوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ اللَّهُ بِكُمْ فَأَمَّنَّا بِكُمْ» أى: اختبر وامتحان منه لكم، إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونها فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتتناصون بها منه؟ كما قال تعالى: «إِنَّمَا آمَنَ اللَّهُ بِكُمْ وَأَمَّنَّا بِكُمْ وَأَلَّفَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» [التغابن: ١٥]، وقال: «وَتَلَوُّكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» [الانباء: ٣٥]، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَهَكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [المناقضون: ٩]، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» أى: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الاموال والاولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يعنى عنك شيئاً، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه» (٣). بل حب رسول الله مقدم على الاولاد والاموال والنفوس، كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين» (٤).

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (١٦/٥ - ١٨)، وفتح البارى (٤١٣/٧).

(٢) سبق تخريجه عند الآية: ٩ من السورة نفسها. (٣) مسلم (٦٧/٤٣). (٤) البخارى (١٤).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنقُضُوا ءَالَهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ءَآللَهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابن عباس، والسُّدِّي، ومُجاهِد ، وغيرهم : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ : مخرجًا . زاد مجاهد : في الدنيا والآخرة . وفي رواية عن ابن عباس : نجاة . وفي رواية عنه : نصرا . وقال ابن إسحاق : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ أي : فصلا بين الحق والباطل . وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله ؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك رواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعاده يوم القيامة، وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها : سترها عن الناس، سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ءَآللَهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ءَآللَهُ ءَآللَهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ ليقيدوك . وقال عطاء، وابن زيد : ليحبسوك . وقال السُّدِّي : «الإثبات» : هو الحبس والوثاق . وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال ، وهو الغالب من صنع من أراد غيره بسوء . ثم إن اجتماع قريش على هذا الاتسار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة ، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين ، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه . والدليل على صحة ما قلنا : ما رواه الإمام محمد بن إسحاق عن ابن عباس ؛ أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاهترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما راوه قالوا : من أنت؟ قال : شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن احضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي . قالوا : أجل، ادخل فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائبكم في أمركم بأمره . قال : فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والناطقة، إنما هو كأحدكم، قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يشوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قال : فانظروا في غير هذا . قال : فقال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم آذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم ، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق والله، فانظروا باباً غير هذا . قال : فقال أبو جهل، لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم بصرتموه بعد، ما أرى غيره . قالوا : وما هو ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهذا ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل ، فلا أظن هذا الحى من بنى

هاشم يقولون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي. القول ما قال الفتى لا رأى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْعَثُكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِمِينَ ﴾ ، وأنزل في قولهم: تربصوا به ربب المتون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَبِّبُ الْمُتُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وكان ذلك اليوم يسمى « يوم الزحمة » ، للذي اجتمعوا عليه من الرأي .

وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْفُتُونَ خِلَافًا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦] . وقال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ يستظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل، عليه السلام، فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى يرد له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرهما على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿ بسم . والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [بر : ١ - ٩] . قال الحافظ أبو بكر البيهقي: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا (١) .

وقد روى ابن حبان في صحيحه، والحاكم عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: « ما يبكيك يا بنية؟ » قالت: يا أبت، وما لي لا أبكي، وهؤلاء الملا من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك. فقال: « يا بنية، اتنى بوضوء ». فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد. فلما أراه قالوا: ها هو ذا. فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم. فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: « شامت الوجوه ». فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخبره، ولا اعرف له علة (٢). وعن عروة بن الزبير في قوله: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِمِينَ ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدى المتين، حتى خلصتك منهم.

﴿ وَإِذْ لَقْنَا لِقَاءَ الْوَيْلِ لِقَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَوْتَانَا فَأَلَّوْا فَسَمِعْنَا لَهُمْ نُشَاءً فَفَعَلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا حِجَابًا
الْبَرِّ ﴿ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِنُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعوثهم وتمردهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تلى عليهم أنهم يقولون: ﴿ فَمَا سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ . وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير

(٢) ابن حبان في الموارد (٦١٩١)، والحاكم (٣/١٥٧) .

(١) دلائل النبوة (٢/٤٦٩، ٤٧٠) .

ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا . وإنما هذا قول منهم يَفَرُونَ به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم . وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث - لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير ، والسدي ، وابن جرير وغيرهم ؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رُسْمَ واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان إذا قام ﷺ من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ، ثم يقول : بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ، ففعل ذلك ، والله الحمد . وكان الذي أسره المقداد بن الأسود ، كما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قَتَلَ النبي ﷺ يوم بدر صبورا عَقَبَ بن أبي معيط وطُعَيْمَ بن عَدَى ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله ، قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول في كتاب الله ، عز وجل ، ما يقول . فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغنِ المقداد من فضلك . » فقال المقداد : هذا الذي أردت . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ (١) .

ومعنى : ﴿ أساطير الأولين ﴾ وهو جمع أسطورة ، أى : كتبهم اقتبسها ، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس . وهذا هو الكذب البحت ، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُلَقَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦] أى : لمن تاب إليه وأناب ؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابِ أَيْمٍ ﴾ : هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم ، وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عَيَّبُوا به ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : « اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه . » ولكن استفحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَآيَاتِهِمْ يَخْفَىٰ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المنكوت : ٥٣] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَلِيلًا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ١٦] ، وقوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج : ١-٣] ، وكذلك قال الجيلة من الأمم السالفة ، كما قال قوم شعيب له : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، وقال هؤلاء : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابِ أَيْمٍ ﴾ . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابِ أَيْمٍ ﴾ ، فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ ﴾ (٢) . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية ، قال : قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجَهلتها ، فعاد الله بعائده ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجَهلتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ ﴾ عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : ليك اللهم لييك ، ليك لا شريك لك . فيقول النبي ﷺ :

« قَدْ قُدَّ » ويقولون : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك ، غفرانك ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبي ﷺ ، والاستغفار ، فذهب النبي ﷺ ، وبقي الاستغفار (١) . وقال الضحاك وأبو مالك : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعني : المؤمنين الذين كانوا بمكة . وقال ابن عباس : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجازين من قوارع العذاب ما داموا بين أظهرهم : فإمان قبضه الله إليه ، وإمان بقى فيكم ، قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد والحاكم عن أبي سعيد ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت ارواحهم في أجسادهم . فقال الرب : وعزتي وجلالي ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » . ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَافَؤُا وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم ، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر ، فقتل صناديدهم وأسروا سراتهم . وأرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب ، التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدي وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا . واختاره ابن جرير ، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين ، لوقع بهم البأس الذي لا يرد ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك ، كما قال تعالى في يوم الحديبية : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَكْرُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوْرَهُمْ فَيُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَفَّلُوا فَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٥] . روى ابن جرير عن ابن أبي عمير قال : كان النبي ﷺ بمكة ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ قال : فخرج النبي ﷺ إلى المدينة ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال : وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين - يعني بمكة - يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ قال : فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم . وروى عن ابن عباس ، والضحاك ، وغير واحد نحو هذا .

وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم . قال عكرمة والحسن البصري : قال في « الانفال » : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فسختها الآية التي تليها : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، فقوتلوا بمكة ، فأصابهم فيها الجوع والضر . وعن ابن عباس : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ

بصدور عن المسجد الحرام ﴿

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ أى : هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أَوْتِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ لَعَسَ أَوْتِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٧ ، ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَأَخْرَجَ أَهْلَهُ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة : ٢١٧] . وروى الحاكم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه ، عن أبيه ، عن جده قال : جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال : «هل فيكم من غيركم ؟ » قالوا : « فينا ابن اختنا ، وفينا حليفنا ، وفينا مولانا . فقال : « حليفنا منا ، وابن اختنا منا ، ومولانا منا ، إن أوليائي منكم المتقون » . ثم قال : هذا صحيح ، ولم يخرجاه (١) . وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ قال : هم محمد ﷺ وأصحابه ، رضى الله عنهم . وقال مجاهد : هم المجاهدون ، من كانوا ، وحيث كانوا .

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَعْدِيَةً ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وغيرهم : هو الصغير - وزاد مجاهد : وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم . وقال السدى : المكاء : الصغير على نحو طير أبيض يقال له : « المكاء » ، ويكون بأرض الحجاز . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَعْدِيَةً ﴾ قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق . والمكاء : الصغير ، والتصدية : التصفيق . وكذا روى عن ابن عمر ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم نحو هذا . وعن ابن عمر أيضاً أنه قال : كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصقرون . قال مجاهد : وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلواته . وقال الزهرى : يستهزئون بالمؤمنين .

قوله : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ قال الضحاك : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي . واختاره ابن جرير ، ولم يحك غيره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿١٠٠﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد (٢) بن معاذ ، قالوا : لما أصيب قريش يوم بدر ، ورجع قتلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بغيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، فى رجال من قريش أصيب أبائهم ، وأبنائهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان

(٢) فى المطبوعة : « سعيد » وهو خطأ ، والتبئ من المخطوطة .

يقول تعالى لئيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ أى : عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعدا ، ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والإنابة ، يغفر لهم ما قد سلف ، أى : من كفرهم . وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء فى الصحيح عن ابن مسعود ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من أحسن فى الإسلام ، لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام ، أخذ بالاول والآخر » (١) . وفى الصحيح أيضاً : أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يَجِبُ ما قبله ، والتوبة تجب ما كان قبلها » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَعْزُبُوا ﴾ أى : يستمروا على ما هم فيه ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : فقد مضت سنتنا فى الاولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم ، أنا نعالجهم بالعذاب والمعقوبة . وقوله : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : فى قريش يوم بدر وغيرها من الامم . وقال السدى وابن إسحاق : أى : يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ : روى البخارى عن ابن عمر ؛ أن رجلا جاءه (٣) فقال : يا ابا عبد الرحمن ، ألا تسمع (٤) ما ذكر الله فى كتابه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ الآية [الحجرات : ٩] ، فما يمنعك الا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن اخی ، أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلى من أن أعير بالآية التى يقول الله ، عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُعْتَدًا ﴾ إلى آخر الآية [النساء : ٩٣] ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؟ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يفتن فى دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد ، قال : فما قولك فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولى فى على وعثمان : أما عثمان فكان الله قد عفا عنه ، وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه . وأشار بيده - وهذه ابنته - أو : بنته - حيث ترون (٥) . وقال ابن عباس : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يعنى : حتى لا يكون شرك ، وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وقال عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

وقوله : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ قال ابن عباس : يخلص التوحيد لله . وقال الحسن وقتادة : أن يقال : لا إله إلا الله . وقال ابن إسحاق : ويكون التوحيد خالصا لله ، ليس فيه شرك ، ويخلص ما دونه من الانداد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ : لا يكون مع دينكم كفر . ويشهد له ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، عز وجل » (٦) . وفيهما عن أبى موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ، عز وجل ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله ، عز وجل » (٧) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا ﴾ أى : بقتالكم عما هم فيه من الكفر ، فكفروا عنه ، وإن لم تعلموا بواطئهم

(١) هو فى البخارى (٦٩٢١) ، ومسلم (١٨٩/١٢٠) .

(٢) أحمد (١٩٨/٤) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٥٤/٩) : « رواه أحمد والطبرانى ورجالهما نقات » .

(٣) وذلك فى فتنة ابن الزبير .

(٤) فى المطبوعة والمخطوطة : « تصنع » ، والثبت من البخارى .

(٥) البخارى (٤٦٥٠ ، ٤٦٥١) .

(٦) البخارى (٢٥) ، ومسلم (٣٦/٢٢) .

(٧) البخارى (٢٨١٠) ، ومسلم (١٤٩/١٩٠٤) .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، كقولہ : ﴿إِنَّ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة : ٥] ،
وفى الآية الاخرى : ﴿فَاغْرَاكُمُ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة : ١١] .

وقال : ﴿وَلَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ابْتَهَمُوا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ١٩٣] وفى
الصحيح ان رسول الله ﷺ قال لاسامة - لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : «لا إله إلا الله» ، فضربه
فقتله ، فذكرت ذلك لرسول الله - فقال لاسامة : «أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بلا
إله إلا الله يوم القيامة ؟ » فقال : يا رسول الله ، إنما قالها تعوداً . قال : «هلا شَقَقْتَ عن قلبه ؟» ، وجعل
يقول ويكرر عليه : «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟» قال اسامة : حتى تخميت انى لم اكن اسلمت إلا
يومئذ (١) .

وقوله : ﴿وَأَن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَن اللّٰهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ المَوْلَىٰ وَنِعْمَ النصيرُ﴾ اى : وان استمروا على خلافكم
ومحاربتكم ﴿فاعلموا ان الله مولاكم﴾ : سيدكم وناصركم على اعدائكم ، فنعن المولى ونعم النصير .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلّٰهِ خُمُسُهُمُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَنبِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أمانتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ وَاللّٰهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الامة الشريفة من بين سائر الامم المتقدمة ، بإحلال
الغنائم . و« الغنيمة » : هى المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب . و« الفرى » : ما أخذ منهم
بغير ذلك ، كالأموال التى يصلحون عليها ، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم ، والجزية والحراج ونحو
ذلك . هذا مذهب الإمام الشافعى فى طائفة من علماء السلف والخلف . ومن العلماء من يطلق الفرى
على ما تطلق عليه الغنيمة ، والغنيمة على الفرى أيضا .

وقوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلّٰهِ خُمُسُهُ﴾ : تؤكد لتخميس كل قليل وكثير حتى
الخيط والخيطة ، قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَهْلِكْ بَاتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَلَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
[ك صرمان : ١٦١] .

وقوله : ﴿فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ : اختلف المفسرون هاهنا : فقال بعضهم : لله نصيب من الخمس
يجعل فى الكعبة . وقال آخرون : ذكر الله هاهنا افتتاح كلام للتبرك ، وسهمه لرسوله عليه السلام .

قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا ، خَمَسَ الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس
فى خمسة . ثم قرأ : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلّٰهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ ، ﴿فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام ،
الله ما فى السموات وما فى الأرض ، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً . ويؤيد هذا ما رواه الإمام
البيهقى بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن شقيق ، عن رجل ، قال : أتيت النبى ﷺ وهو بوادى القرى ،
وهو يمرض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ، ما تقول فى الغنيمة ؟ فقال : « لله خمسها ، وأربعة
أخماس للجيش » . قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لا ، ولا السهم تستخرجه من جيئك ،
ليس أنت أحق به من أخيك المسلم » (٢) . وروى ابن جرير عن الحسن قال : أوصى أبو بكر

(١) البخارى (٤٢٦٩) ، ومسلم (١٥٩/٩٦) . (٢) البيهقى فى السنن الكبرى (٣٢٤/٦) .

بالخمس من ماله، وقال: الا أرضى من مالى بما رضى الله به لنفسه (١).

وقال عطاء : خمس الله والرسول واحد ، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعنى : النبى ﷺ . وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف فى الخمس الذى جملة الله له بما شاء، ويرده فى أمته كيف شاء . ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندى : أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبى الدرداء، والحارث بن معاوية الكندى ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس؟ فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أظفاره فقال : «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الحيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عارٌ ونار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد، ولا تبالوا فى الله لومة لائم، واقبموا حدود الله فى السفر والحضر ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ، ينجى الله به من الهم والغم » . هذا حديث حسن عظيم (٢) .

وقد كان للنبى ﷺ من المغنم شئ. يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشيمى، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد، والترمذى - وحسنه - عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ تغل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد (٣) . وعن عائشة ، قالت : كانت صفة من الصغرى . رواه أبو داود (٤) . وروى أيضاً بإسناده، والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها : «من محمد رسول الله إلى بنى رهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبى وسهم الصغرى، أتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ (٥) . فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه .

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف فى مال القىء . وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال . فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً فى الذى كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلى الأمر من بعده . وقال آخرون: يصرف فى مصالح المسلمين . وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوى القربى، واليتامى، والمساكين ، وابن السبيل، اختاره ابن جرير . وقال آخرون : بل سهم النبى ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

(١) ابن جرير فى التفسير (٣/١٠)، وفى المطبوعة والمخطوطة: «أوصى الحسن» بدل «أوصى أبو بكر»، والثبت من الطبرى .

(٢) المسند (٣١٦/٥) .

(٣) المسند (٢٤٤٥) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح » ، والترمذى (١٥٦١) .

(٤) أبو داود (٢٩٩٤) . (٥) المسند (٧٧/٥) ، وأبو داود (٢٩٩٩) ، والنسائى (٤١٤٦) .

وقيل: إن الخمس جميعه لذوى القربى . ثم اختلف الناس فى هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقال قائلون : سهم النبى ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده . وقال قائلون: لقربة النبى ﷺ . وقال قائلون: سهم القرابة لقربة الخليفة . فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعُدَّة فى سبيل الله ، فكانا على ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما .

وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب ؛ لأن بنى المطلب والروا بنى هاشم فى الجاهلية وفى أول الإسلام ، ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافروهم حَمِيَّةً للعث . وأنفقة وطاعة لآبى طالب عم رسول الله . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم ونابدوهم، ومالوا بطون قريش على حرب الرسول .

وقال جبير بن مطعم بن عدى : مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ، أعطيت بنى المطلب من خمس خبير وتركتنا ، ونحن وهُم منك بمنزلة واحدة، فقال : « إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد » . رواه مسلم ^(١) . وفى بعض روايات هذا الحديث : «إنهم لم يفرقونا فى جاهلية ولا إسلام» ^(٢) . وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب . قال ابن جرير : وقال آخرون: هم بنو هاشم . ثم روى عن مجاهد قال : علم الله أن فى بنى هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة . وفى رواية عنه قال : هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا محل لهم الصدقة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَلَىٰ أَيْمَانِنَا ﴾ أى: يتامى المسلمين . واختلف العلماء: هل يختص بالايتم الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين. ﴿ وَالصَّالِحِينَ ﴾ : هم المحابيح الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكتهم. ﴿ وَأَبْنَاءَ السَّبِيلِ ﴾: هو المسافر، أو المرید للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك. وسبأنى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أى: امتلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله ابن عباس، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من الغنم..» الحديث بطوله ^(٣) ، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان.

وقوله: ﴿ يَوْمَ نَقَىٰ الصُّفْهَانَ وَاللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ : ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيد، ويسمى «الفرقان» ؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظنر دينه ونصر نبيه وحزبه . قال ابن عباس: يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل .

(١) الحديث فى البخارى (٣١٤٠)، ولم نقف عليه فى صحيح مسلم كما أشار الحافظ .

(٢) البخارى (٥٣)، ومسلم (٢٣/١٧) .

(٣) النسائى (٤١٣٧) .

وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ . وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لسبع عشرة - أو: سبع عشرة - مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وعن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الَّذِينَ وَهَمُّوا بِالْمَدِينَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمَدِينَةِ الَّذِينَ وَهَمُّوا بِالْمَدِينَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾. عن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملا منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه. وفي حديث كعب بن مالك قال: لما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(١). وروى ابن جرير عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمتنع من رسول الله ﷺ. وأصحابه، فالتقوا بدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السقاة، ونهد الناس بعضهم لبعض^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: حتى إذا رأى أبو سفيان أن قد أحرز غيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى غيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا. وكانت بدر سوقا من أسواق العرب - فقيم بها ثلاثا، فتطعم بها الطعام، وتتحرب بها الجزر، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب ويسيرنا، فلا يزالون يهابونا بعدها أبدا.

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب، وسعد ابن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاة لقريش: غلاما لبني سعيد بن العاص، وغلاما لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلين، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتم؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. ففكره القوم خيرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان.

(٢) ابن جرير في التفسير (٩/١٠).

(١) البخاري (٣٩٥١).

فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذبكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قریش». قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكتيب: العَقَنْقَلُ - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يوما تسعاً، ويوما عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قریش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، ورَمَعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وتيبة ومثبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

قال ابن إسحاق: إن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ، لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُبيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأهزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قوما، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوادونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما.

قال ابن إسحاق: وارتحلت قریش حين أصبحت، فلما أقبلت وراها رسول الله ﷺ قال: «اللهم هذه قریش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادُّكَ وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة».

وقوله: ﴿لَيْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ وَيُحِيقُ مَنْ حَمَى عَنْ بَيْتِهِ﴾: قال ابن إسحاق: أى ليكفر من كفر بعد الحججة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وهذا تفسير جيد، ويسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد، لينصرمكم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ﴾ أى: يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحججة عليه ﴿وَيُحِيقُ مَنْ حَمَى﴾ أى: يؤمن من آمن ﴿عَنْ بَيْتِهِ﴾ أى: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِتًا فَاَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الانعام: ١٢٢]، وقالت عائشة فى قصة الإفك: فى هلك من هلك، أى: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أى: لدعانكم وتضرعكم واستغاثكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَنزَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفِيشَنَّهُمْ وَلِنُنزِعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَئِكَنَّ اللَّهُ سَكْمٌ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الشُّدُورِ ﴿١٠﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقِيلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١﴾﴾

قال مجاهد: أراه الله إياهم فى منامه ^(١) قليلاً، وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك، فكان شيتنا لهم.

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: «أراهم الله فى منامه»، وما أثبتناه من الطبرى ١٠/١٠.

وقوله : ﴿وَلَوْ أَرَادَهُمْ كَثِيرًا لَفَاقَمُوا﴾ أى : لجيستم عنهم واختلقتهم فيما بينكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى : من ذلك : بأن أراكم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : بما تحته الضمائر ، وتنطوى عليه الاحشاء ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] .

وقوله : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّخِمْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ : وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم ، إذ أراهم إياهم قليلاً فى رأى العين ، فيجرتهم عليهم ، ويطمعهم فيهم ﴿وَيَقْلَلِكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ : روى ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّخِمْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلَلِكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال : حضض بعضهم على بعض . إسناده صحيح . ومعنى هذا : أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالأخر ، وقلله فى عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة . فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتِي الثَّقَلَيْنِ فَتَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرِجْ كَافِرَةَ يَؤُوتَهِمْ مَثَلَهُمْ رَأَى الْعَمِينَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران : ١٣] ، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلا منهما حق وصدق ، والله الحمد والمنة .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ فِيكَ فَاغْتَبُوا وَادَّكُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَفَاشِلُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء ، فقال : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ فِيكَ فَاغْتَبُوا﴾ . ثبت فى الصحيحين ، عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن رسول الله ﷺ : أنه انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ، لَا تَتَمَنَّا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ﴾ . ثم قام النبي ﷺ وقال : «اللهم ، منزل الكتاب ، ومُجْرِي السحاب ، وهازم الأحزاب ، اعزهم وانصرنا عليهم» (١) .

وقال قتادة فى هذه الآية : افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضراب بالسيوف . وروى ابن أبى حاتم عن ابن جريج عن عطاء قال : وجب الإنصات والذكر عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم . فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا يتكلموا ولا يجنوا ، وأن يذكروا الله فى تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلموا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله فى حالهم ذلك . فما أمرهم الله تعالى به الصبر ، وما نهاهم عنه الانزعاج ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم . ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ أى : قوتكم وحدثكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقد كان للصحابه - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة والامتنار بأمر الله ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لاحد من الامم والقرون قبلهم ، ولا يكون لاحد من بعدهم ؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والاقاليم شرقاً وغرباً فى المدة السيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الاقاليم ، من الروم والفرس والترك والصفالية والبربر والحبوش واصناف السودان والقيط ،

وطوائف بنى آدم، قهروا الجميع حتى عَلت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها، فى أقل من ثلاثين سنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا فى ذمرتهم، إنه كريم تواب .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيقًا النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم ﴿بَطْرًا﴾ أى : دفعا للحق ﴿وَرِيقًا النَّاسِ﴾ وهو : المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا - فقال : لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجُرُز، ونشرب الحمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع، لانهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورموا فى أطواء بدر مهاتين أذلاء، صفرة أشقياء فى عذاب سرمدى أبدي؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى : عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس فى قوله مالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيقًا النَّاسِ﴾ قالوا. هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدخوف، فانزل الله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيقًا النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

وقوله : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية : حسن لهم - لعنة الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال : إني جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقته بن مالك، وكل ذلك منه، كما قال تعالى عنه : ﴿بِعَدْمِهِمْ وَبِحَيْثِهِمْ وَمَا بَعْدَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ١٢٠]. وقال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين، معه رايته، فى صورة رجل من بنى مدلج، [سراقته بن مالك بن جعشم] (١)، فقال الشيطان للمشركين : ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ . فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده فى يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل : ياسراقه، أنتزعتك لنا جارا؟ فقال : ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة. وقال محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير : لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يشنيهم، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقته بن مالك بن جعشم المدلجى - وكان من

(١) سقط من المطبعة، وأثبتناه من المخطوطة .

أشرف بنى كنانة - فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا. قال محمد بن إسحاق : فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراققة بن مالك لا ينكرونه ، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو : عمير بن وهب - فقال: أين، أى سراق ؟ (١) ومثل عدو الله فذهب - قال: فأوردتهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبه، وقال: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ وصدق عدو الله، وقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ ، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك .

قلت: يعنى بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ [الحشر : ١٦] ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمِزُونِي لَوْ مَوَّأْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

وقوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرْهُوْلَاءَ دِينِهِمْ ﴾ : قال ابن عباس في هذه الآية : لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿ غُرْهُوْلَاءَ دِينِهِمْ ﴾ وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال : والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتوا. وقال مجاهد في قوله، عز وجل: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرْهُوْلَاءَ دِينِهِمْ ﴾ قال : فئة من قريش، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ ، قالوا: ﴿ غُرْهُوْلَاءَ دِينِهِمْ ﴾ ، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : يعتمد على جنبه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى : لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب ، عظيم السلطان ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى أفعاله ، لا يضيعها إلا فى مواضعها ، فيصير من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيما منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأبوابهم، ويقولون لهم: ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ . قال مجاهد: ﴿ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ : استأههم ، قال : يوم بدر . وقال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ، ضربوا

(١) فى المخطوطة : « أين أين سراققة » ، والمثبت من سيرة ابن هشام (١/٦٢٣) .

وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أديبارهم .

وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ وفي سورة القتال مثلها (١) ، وتقدم في سورة الأنعام قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٣] . أى: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذا بشروهم بالمعذاب والغضب من الله؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ ﴾ أى: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا ، جزاكم الله بها هذا الجزاء ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ بَشَرًا لِّشَيْءٍ ﴾ أى: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل ، الذى لا يبور، وتبارك وتعالى وتقدس وتنزه، الغنى الحميد ؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح من رواية أبى ذر عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلت بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢) ولهذا قال تعالى:

﴿ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۗ ﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا ، أى: عادتنا ومستنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول ، الكافرين بآيات الله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى: بسبب ذنوبهم أهلكتهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفْعِرُوا ۗ مَا يَأْتِيهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۗ ﴾

﴿ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ ۗ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ۗ ﴾

يخبر تعالى عن غم عدله، وقسطه فى حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ ءَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

وقوله: ﴿ كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته ، أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم من جنات وعيون، ووروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله فى ذلك، بل كانوا هم الظالمين .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُوتُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَتَّفَقَتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدَّدَ بِهِمْ مَنَّا خَلَفْتَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه، وكلما أكدوه بالإيمان نكثوه ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أى: لا يخافون من الله فى شىء ارتكبه من الآثام. ﴿فَإِنَّمَا تَتَّفَقَتَهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أى: تغلبهم وتظفر بهم فى حرب ﴿فَتَرَدَّدَ بِهِمْ مَنَّا خَلَفْتَهُمْ﴾ أى: نكل بهم، قاله ابن عباس ومعناه: غلظ عقوبتهم وانخنهم قتلا، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وقال السدى: يقول: لعلمهم يحذرون أن يتكثروا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةً فَأَنِذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيفَةً﴾ أى: نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿فَأَنِذِ إِلَيْهِمْ﴾ أى: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أى: تنوى أنت وهم فى ذلك . وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله: ﴿فَأَنِذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أى: على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ أى: حتى ولو فى حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير فى أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدرا ، إن رسول الله ﷺ قال : « ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء » قال : فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضى الله عنه. ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (١).

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ (٢) يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أى : فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفى قبضة مشيتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [التكوير: ٤٤] أى: يظنون، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَتَبَسَّ الْمُصِيرُ ﴾ [النور: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . تَوَاعٍ لَقِيلَ لِمَ مَا وَاهُمُ جَهَنَّمَ وَتَبَسَّ الْمُهَادُّ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

(١) المسند (١١١/٤) ، والترمذى (١٥٨٠).

(٢) كذا فى المطبوعة والمخطوطة بالتاء ، وهى قراءة سبعة .

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أى: مهما أمكنكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. روى الإمام أحمد: عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ، إلا إن القوة الرمي، إلا إن القوة الرمي . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام مالك عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة: لرجل أجْر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فاما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال بها فى مرج - أو: روضة - فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج - أو: الروضة - كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواتها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به ، كان ذلك حسنات له ؛ فهى لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى له ستر . ورجل ربطها فخرأ ورياء ونواء فهى على ذلك وزر . وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفائزة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾» [الزلة: ٧ ، ٨] . رواه البخارى - وهذا لفظه - ومسلم (٢) .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم. والاحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة ، وفى صحيح البخارى ، عن عروة بن أبى الجعد البارقى: أن رسول الله ﷺ قال: « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم » (٣).

وقوله: ﴿ تَرْهَبُونَ ﴾ أى: تخوفون ﴿بِعَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّكُمْ﴾ أى: من الكفار ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعنى: قريظة ، وقال السدى : فارس ، وقال مقاتل ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المنافقون. وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله: ﴿وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَاقِفُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْبِغَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] .

وقوله: ﴿وَمَا تَتَّقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾ أى: مهما أنفقتم فى الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخُدُّوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ يَصْرُوهُ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حرك ومناذتكم فقاتلهم ﴿وإن جنحوا﴾ أى: مالوا ﴿للسلم﴾ أى: المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فاجتنب لها﴾ أى: فعل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ اجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الاخر. وقوله: ﴿وتوكل على الله﴾

(١) المسند (٤/١٥٦)، ومسلم (١٩١٧/١٦٧) .

(٢) مالك فى الموطأ (٤٤٤/٢) ، والبخارى (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧/٢٤) .

(٣) البخارى (٢٨٥٠) .

أى: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليقنوا ويستعدوا ﴿فَإِنْ حَسِبَ اللَّهُ﴾ أى: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيد به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك ومواررتك ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [تكم عمران: ١٠٣] . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم اجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فاعانكم الله بي، وكنتم متفرقين فالفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم فى أفعاله وأحكامه. روى النسائي والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون فى الله، وفى رواية: نزلت فى المتحابين فى الله. وقال الحاكم: صحيح (٢). وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان فى الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه، تحامت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هنا ليسيراً فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ! . قال عبدة: فعرفت أنه أفقه منى. وروى الطبراني عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقى أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحامت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زيد البحر» (٣).

﴿يَأْتِيهَا النَّوْ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّعَمَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّوْ حَرِصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مَا تَأْتِيهِمْ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَقْبَلُوا الْقِتَالَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلْفَنْ حَقَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعَقًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَقْبَلُوا بِمِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَقْبَلُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخيرهم أنه حسبهم، أى: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال الشعبي فى قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّوْ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّعَمَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. وعن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد مثله.

(١) البخارى (٤٣٠)، ومسلم (١٠٦١/١٣٩).

(٢) النسائي فى الكبرى (١٢١٠)، والحاكم (٣٢٩/٢).

(٣) الطبراني فى الكبير (٢٥٦/٦) (٦١٥٠)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٤٠/٨): «رجاله رجال الصحيح غير سالم بن

ولهذا قال: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ حَرَضِي الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أى: حثهم وذمهم عليه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون فى هددهم وَعَدَّدهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بيخ بيخ، فقال: «ما يحملك على قولك بيخ بيخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها أقال: «إناك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضى الله عنه (١).

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وأمرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، كل واحد بعشرة . ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٢).

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُودًا عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأَخْرَجَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَلَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

روى الإمام أحمد عن انس رضى الله عنه قال: استشار النبي ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يارسول الله، اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأسر»، فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال للناس مثل ذلك. فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء. قال: فلدعب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من النعم فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

قرأ ابن عباس: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنى لا أعذب من عصائى حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكلنا قال مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا. وروى نحوه عن سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن جبيرة، وعطاء. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أى: فى أم الكتاب الأولى أن المغنم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَلَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وروى مثله عن أبى هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبيرة، وعطاء وغيرهم ، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه فى الصحيحين عن جابر ابن عبد الله

(١) رواه مسلم (١٤٥/١٩٠١).

(٢) البيهقارى (٤٦٥٣) بنحوه .

(٣) أحمد ٢٤٣/٣ بإسناده صحيح.

قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النى يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة» (١).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الغداء. وقد روى أبو داود عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (٢).

وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل بنى قريظة - وإن شاء فادى بجال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتها من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ ۚ إِن يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾

قال ابن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلا مؤسرا فأتى نفسه بمائة أوقية ذهب. وفى صحيح البخارى، من حديث أنس بن مالك أن رجلا من الانصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: انذن لنا فلتترك لابن اختنا عباس فداءه. قال: «لا، والله لا تدرؤن منه درهما» (٣).

وقال محمد بن إسحاق: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلما! فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنى أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر». قال: ما ذاك عندى يا رسول الله! قال: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: أن أصبت فى سفرى هذا، فهذا المال الذى دفنته لبنى: الفضل، وعبد الله، وقثم». قال: والله يا رسول الله، إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى: عشرين أوقية من مال كان معى؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل الله، عز وجل

(١) البخارى (٣٣٥)، ومسلم (٣/٥٢١).

(٢) أبو داود (٢٦٩١)، وقال الألبانى: «صحيح دون الأربعمائة»، وانظر: إرواه الغليل (١٢١٨).

(٣) البخارى (٣٠٤٨).

فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ بِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال العباس : فاعطاني الله مكان العشرين الاوقية في الإسلام عشرين عبدا، كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، عز وجل .

وقال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ : عباس وأصحابه . قال : قالوا للنبي ﷺ : أما بما جنت به، ونشهد أنك رسول الله، لتصحن لك على قومنا . فأنزل الله : ﴿ إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ بِكُمْ ﴾ إيمانا وتصديقا، يخلف لكم خيرا عما أخذ منكم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ الشرك الذي كنتم عليه . قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال : ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ بِكُمْ ﴾ فقد اعطاني خيرا عما أخذ مني مائة ضعف، وقال : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ، وأرجو أن يكون غفر لي .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ أى : فيما أظهروا لك من الاقوال ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : من قبل بدر بالكفر به ﴿ فَأَمَّا كُنْ مِنْهُمْ ﴾ أى : بالإسار يوم بدر ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بما يفعله، حكيم فيه . قال قتادة : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين . وقال ابن عباس : نزلت في عباس وأصحابه ، حين قالوا : لتصحن لك على قومنا . وفسرها السدي على العموم، وهو اشمل واظهر، والله اعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ لَّيْتِيهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ قَالَتْكُمْ أَنْصَرُوا إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ يَتَيْتُقُوا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبللوا أموالهم وأنفسهم في ذلك . وإلى أنصار، وهم : المسلمون من أهل المدينة إذ ذلك، أووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى : كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرتنا مقدما على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواثيق، ثبت ذلك في صحيح البخارى، عن ابن عباس (١) ، وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن، وقاتدة، وغيرهم .

وقد أنشئ الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الآية [التوبة : ١٠٠] ، وقال : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَةِ ﴾ الآية [التوبة : ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿الْحشر: ٨، ٩﴾ .

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى : لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الانصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ : هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا في بواديهم ، فهؤلاء ليس لهم في المغنم نصيب ، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الإمام أحمد عن بريدة بن الحُصيب الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، وقال : « اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، فأنتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفداء والغنمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم». انفراد به مسلم، وعنده زيادات أخر (١) .

وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ : يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الاعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا إيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْضَمِ أَوْلِيَاءِهِمْ أَلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم عن أسامة ، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً» ، ثم قرأ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْضَمِ أَوْلِيَاءِهِمْ أَلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) . قلت : الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» (٣) .

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض .

(٢) الحاكم (٢/ ٢٤٠) .

(١) المسند (٥/ ٣٥٢) ، ومسلم (٣/ ١٧٣١) .

(٣) البخارى (٦٧٦٤) ، ومسلم (١/ ١٦١٤) .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا ، عطف بذكر ما لهم في الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان ، كما تقدم في أول السورة ، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضى ، ولا يُسأم ولا يملُّ لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الاتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وفي الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» (١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصب، بل يُنلون بوارث، كالحالة، والحال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقوامها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث» (٢) ، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

(١) البخارى (٦١٦٨)، ومسلم (١٦٥/٢٤٠).

(٢) أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذى (٢١٢٠)، والنسائى (٣٦٤٣)، وابن ماجه (٢٧١٣)، وصححه الألبانى .